الميزان في تفسير القرآن: موسوعة تفسيرية ضخمة دبجتها يراعة الفيلسوف الرباني الزاهد العلامة السيد محمدحسين الطباطبائي رضوان الله عليه، وقد ارتأت هيئة تحرير (التوحيد) تقديم بعض بحوثه الموضوعية باسلوب جديد:

مسألة التحريف في القرآن

بقلم: آية الله المرحوم الطباطبائي
تقديم: محمدتقي ابراهيم

تضمن القسم الأول من هذا الموضوع المنشور في العدد السابق ثلاثة فصول هي بالترتيب؛ دليل أخبار العقل على عدم التحريف، ودليل الأخبار والروايات على عدم التحريف، وحجج القائلين بالتحريف. واليكم القسم الثاني والأخير من الموضوع:

القسم الثاني

(الفصل الرابع)
الجمع الأول للقرآن

في تاريخ اليعقوبي: قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: **يا خليفة رسول الله ان حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليمامة، فلو جمعت القرآن فاني أخاف عليه أن يذهب حملته،** فقال له ابوبكر: **أفعل ما لم يفعله رسول الله؟** فلم يزل به عمر حتى جمعه وكتبه في صحف، وكان مفرقاً في الجريد وغيرها.

وأجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش وخمسين رجلاً من الأنصار فقال: **اكتبوا القرآن واعرضوا على سعيد بن العاص فانه رجل فصيح.**

وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان قد جمعه لما قبض رسول الله (ص) وأتى به يحمله على جمل فقال: **هذا القرآن قد جمعته.** قال: **وكان قد جزأه سبعة أجزاء ثم ذكر الأجزاء.**

وفي تاريخ أبي الفداء: **وقتل في قتال مسيلمة جماعة من القرّاء من المهاجرين والأنصار، ولما رأى ابوبكر**

كثرة من قتل، أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود، وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي (ص)، انتهى.

والأصل فيما ذكراه الروايات فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ ابوبكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال ابوبكر؛ إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ص)؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد: قال ابوبكر: انك شاب عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) فتتبّع القرآن، فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص)؟ قال: هو والله خير.

فلم يزل ابوبكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: «لقد جاء كم رسول» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر.

وعن ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله (ص) شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من احد شيئاً حتى يشهد شهيدان.

وعنه ايضاً من طريق هشام بن عروة عن ابيه ـــ وفي الطريق انقطاع ـــ أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه.

وفي الإتقان عن ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن ابوبكر وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل، وإن آخر سورة براءة لم يوجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت فقال: اكتبوها فإن رسول الله (ص) جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب وإن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده.

وعن ابن أبي داود في المصاحف من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن ابيه قال: أتاني الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهد أني سمعتهما من رسول الله (ص) و وعيتهما، فقال عمر: وأنا أشهد لقد سمعتها ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن فالحقوها في آخرها.

وعنه أيضاً من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب أنهم جمعوا القرآن فلما انتهوا إلى الآية التي في سورة براءة «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون» ظنوا أن هذا آخر ما أُنزل فقال أبي: إن رسول الله (ص) أقرأني بعد هذا آيتين «لقد جاء كم رسول» إلى آخر السورة.

وفي الإتقان، عن الدير عاقولي في فوائده: حدثنا ابراهيم بن يسار، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري،

عن عبيد، عن زيدبن ثـابـت قال: **قبض النبي(ص) ولم يكن القرآن جمع في شيء.**

وفي مستدرك الحاكم، بإسناده عن زيدبن ثابت قال: **كنّا عند رسول الله (ص) نؤلف القرآن من الرقاع، ... الخ.**

أقول: ولعل المراد ضم بعض الآيات النازلة نجوماً إلى بعض السور، أو إلحاق بعض السور إلى بعضها، مما يتماثل صنفاً كالطوال والمئين والمفصلات، فقد ورد لها ذكر في الأحاديث النبوية، وإلا فتأليف القرآن وجمعه مصحفاً واحداً إنما كان بعد ما قبض النبي(ص) بلا إشكال، وعلى مثل هذا ينبغي أن يحمل ما يأتي.

في صحيح النسائي، عن ابن عمر قال: **جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي(ص) فقال: اقرأه في شهر.**

وفي الإتقان، عن ابن ابي داود بسند حسن، عن محمدبن كعب القرظي قال: **جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) خمسة من الأنصار: معاذبن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبوالدرداء، وأبوأيوب الأنصاري.**

وفيه، عن البيهقي في المدخل، عن ابن سيرين قال: **جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) أربعة لا يختلف فيهم: معاذبن جبل وأُبَيّ بن كعب وأبوزيد واختلفوا في رجلين من ثلاثة: أبي الدرداء وعثمان، وقيل: عثمان وتميم الدازي.**

وفيه عنه، وعن أبي داود، عن الشعبي قال: **جمع القرآن في عهد النبي(ص) ستة: أُبَيّ، وزيد، ومعاذ، و أبوالدرداء، وسعيدبن عبيد، وأبوزيد، ومجمع بن حارثة، وقد أخذه إلا سورتين أوثلاث.**

وفيه أيضاً عن ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن بريدة قال: **أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه.** ... الخ.

أقول: أقصى ما تدلُّ عليه هذه الروايات مجرّد جمعهم ما نزلت من السور والآيات، وأما العناية بترتيب السور والآيات كما هو اليوم أو بترتيب آخر فلا. هذا هو الجمع الأول في عهد أبي بكر.

(الفصل الخامس)
الجمع الثاني للقرآن

وقد جمع القرآن ثانياً في عهد عثمان لما اختلفت المصاحف وكثرت القراءات.

قال اليعقوبي في تاريخه: **وجمع عثمان القرآن وألّفه وصيّر الطوال مع الطوال والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت ثم سلقها بالماء الحارّ والخلّ، وقيل: أحرقها فلم يبق مصحف حتى فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود.**

وكان ابن مسعود بالكوفة فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبدالله بن عامر وكتب [اليه ظ] عثمان أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالاً، وهذه الأمة فساداً، فدخل المسجد، وعثمان يخطب، فقال عثمان: **إنه قد قدمت عليكم دابة سوء فتكلّم ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان، فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلمت عائشة وقالت قولاً كثيراً.**

وبعث بها إلى الأمصار، وبعث بمصحف إلى الكوفة، ومصحف إلى البصرة، ومصحف إلى المدينة، ومصحف إلى مكة، ومصحف إلى مصر، ومصحف إلى الشام، ومصحف إلى البحرين، ومصحف إلى اليمن، ومصحف إلى الجزيرة.

و أمر الناس أن يقرأوا على نسخة واحدة، وكان سبب ذلك أنه بلغه أن الناس يقولون: قرآن آل فلان، فأراد أن يكون نسخة واحدة، وقيل: إن ابن مسعود كان كتب بذلك اليه،فلما بلغه أنه كان يحرق المصاحف،قال: لم أُرد هذا، وقيل: كتب اليه بذلك حذيفة بن اليمان. إنتهى موضع الحاجة.

وفي الإتقان، روى البخاري، عن أنس، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان-وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية و أذربيجان مع أهل العراق-فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان: **أدرك الامة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى،فأرسل إلى حفصة أن أرسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها اليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان،**فأمر زيد بن ثابت و عبدالله بن الزبير و سعيد بن العاص و عبدالرحمان ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: **إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم،** ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله(ص) يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: «**مِنَ المؤمنينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللّه عَلَيه**» فألحقناها في سورتها في المصحف.

وفيه، أخرج بن أشتة من طريق أيوب عن أبي قلابة قال: حدثني رجل من بني عامر يقال له: أنس بن مالك قال: **اختلفوا في القرآن على عهد عثمان، حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال: عندي تكذبون به، وتلحنون فيه، فمن نأى عني، كان أشدّ تكذيباً، وأكثر لحناً يا أصحاب محمد اجتمعوا واكتبوا للناس إماماً.**

فاجتمعوا فكانوا إذا اختلفوا و تداروا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله(ص) فلاناً فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك رسول الله(ص) آية كذا وكذا؟ فيقول كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً.

و فيه، عن ابن أبي داود من طريق ابن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: **لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تداروا في شيء أخروه.**

قال محمد: فظننت أنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله.

وفيه أخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال الامام علي(ع): **لا تقولوا في عثمان الاخيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. قال ماتقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول:** إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً قلنا: فما ترى؟ [قال: أرى ظ] **أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا يكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.**

وفي الدر المنثور، أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر؛ ان عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة «**والذين يكنزون الذهب والفضة**» قال ابي: **لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها.**

وفي الاتقان، عن أحمد، وابي داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: **ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموهما في السبع الطوال؟**

فقال عثمان: **كان رسول الله (ص) تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها.**

فمن اجل ذلك قرنت بينهما، ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

أقول: السبع الطوال ــ على ما يظهر من هذه الرواية وما روي أيضا عن ابن جبير ــ هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وقد كانت موضوعة في الجمع الأول على هذا الترتيب، ثم غيّر عثمان هذا الترتيب، فأخذ الأنفال ــ وهي من المثاني ــ وبراءة وهي من المئين قبل المثاني ــ فوضعها بين الأعراف ويونس، مقدماً الأنفال على براءة.

(الفصل السادس)
سلامة القرآن من التحريف

الروايات التي تضمنها الفصلان السابقان من أشهر الروايات الواردة في باب جمع القرآن وتأليفه ــ صحيحة كانت تلك الروايات أو سقيمة ــ وهي تدل على أن:

الجمع الأول كان جمعاً للسور المتفرقة المشتتة المكتوبة في العسب، واللخاف، والاكتاف، والجلود، والرقاع، والحاق الآيات النازلة متفرقة، الى سور تناسبها.

وان الجمع الثاني كان جمع المصاحف المتفرقة والمستنسخة في الجمع الأول، وتنسيقها، وتوحيدها بمصحف واحد، من قراءاتها المتعددة. وهو ما أجمع عليه، عدا ما كان من قول زيد أنه: ألحق الآية:

(**من المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللّه عَلَيْه...** الخ) الى سورة الأحزاب، بعد أن كانت السورة تتلى وهي فاقدة إياها مدة خمس عشرة سنة.

وقد روى البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان:

(**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً**)

قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: **يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.**

ودلالات هذه الروايات ــ وهي عمدة ما في هذا الباب ــ وان كانت آحاداً غير متواترة لكنها مقرونة بقرائن قطعية، لأن النبي (ص) كان يبلغ الناس ما نزّل اليه من ربه، ولا يكتم منه شيئاً، كما كان يعلمهم

مضمون تلك النصوص، واستمر القراء المسلمون يتعلمون و يعلمون تلاوته و بيانه،وهم الذين قتل منهم جمع غفير في غزوة اليمامة.

و برغبة شديدة واظب المسلمون على قراءة القرآن، وتعلمه دون انقطاع ولا بعض يوم، حتى تمّ جمع القرآن في مصحف واحد، وأجمع عليه، فلم يقع التحريف به كما حلّ بالتوراة، والانجيل، و بقية كتب الأنبياء.

اضافة الى ذلك فقد وردت روايات من طرق الشيعة والسنّة تضمنت قراءات النبي(ص) لكثير من السور القرآنية في الفرائض اليومية على مسمع ملأ من الناس. وقد ذكرت فيها سور قرآنية ــ مكية ومدنية ــ كثيرة بأسمائها.

وكذا رواية عثمان بن أبي العاص القائلة عن النبي(ص) قوله: «**إنّ جبرائيل أتاني بهذه الآية ــ (انّ اللّه يأمرُ بالعدلِ والإحسان) ، وأمرني أن أضعها في مواضعها من السورة**»، تبين مدى اهتمام المسلمين بالقرآن أيضاً.

ونظير ذلك في الدلالة، الروايات التي تشير الى قراءة النبي(ص) لبعض السور النازلة نجوماً ــ أي متفرقة آية آية ــ كآل عمران، والنساء وغيرهما:

كل هذا يدل على أن النبي(ص) كان يأمر كتّاب الوحي بوضع الآيات القرآنية النازلة في مواقعها من السور.

واحتواء القرآن الذي بين أيدينا للصفات الكريمة التي وصفه اللّه بها ــ كما سبق عرضه ــ من أهم الأدلة القاطعة على سلامته من التحريف ونزاهته من الدس والتغيير.

ومجمل ما تدل عليه الروايات هو: ــ

أولاً ــ ان الموجود من القُرآن هو كلام اللّه تعالى دون زيادة أو تغيير، أما النقص الذي ورد ذكره في بعض الروايات فانها لا تفيد نفي ذلك النقص نفيا قطعياً كالروايات التي وردت بعدة طرق، والقائلة ان عمراً كان يذكر كثيراً آية الرجم، ولكنها لم تكتب عنه.

و أما تعليلهم لعدم كتابة آية الرجم وغيرها مما ورد في التحريف ــ وقد ذكر الالوسي في تفسيره أنها فوق حد الاحصاء ــ بأنها من الآيات التي نسخت تلاوتها، فقد سبق إبطاله، وأن اثبات منسوخ التلاوة أشنع من اثبات أصل التحريف.

كما أن الصحابة الذين جمعوا القرآن كعلي(ع)، و أُبيّ بن كعب، و عبداللّه بن مسعود، لم ينكروا على ما جمع زيد بأمر أبي بكر أولاً، ثم بأمر عثمان ثانياً، عدا ما ورد عن ابن مسعود أنه لم يكتب في مصحفه المعوذتين، وكان يقول: إنها عوذتان نزل بها جبريل على رسول اللّه(ص) ليعوذ بها الحسنين(ع). ولكن سائر الصحابة أكدوا على أنها سورتان، كما تواترت النصوص عن أئمة أهل البيت(ع)، تؤكد أنها سورتان من القرآن الكريم.

والروايات السابقة ــ وهي آحاد تقترن بالقرائن القطعية تنفي ــ بشكل قطعي ــ التحريف بالزيادة والتغيير. اما التحريف بالنقص فهي تنفيه بشكل ظني. وادعاء البعض بتواتر أحاديث الزيادة والنقيصة والتغيير، إدّعاء لا سند تعتمد عليه.

إننا في الوقت الذي نستشهد بالروايات المتوفرة لدينا في اثبات سلامة القرآن الكريم من التحريف، لا

نتخذها الدليل الأساس في اثبات ذلك، وانما نعتمد الميزات التي انفرد بها القرآن ــ كما وصفه الله سبحانه ككونه قولاً فصلاً، و رافعاً للاختلاف، وذكراً، وهادياً، ونوراً، ومبيناً للمعارف الحقيقية، والشرائع الفطر ية، وآية معجزة، الى غير ذلك من الصفات الكريمة التي ورد ذكرها فيه.

ان اعتماد هذا الدليل والتعو يل عليه من أقوى الأدلة المتوفرة لدينا والحجة الدامغة التي لا يتطرق اليها شك، إضافة الى كونها الحجة التي اعتمدها القرآن نفسه في اثبات حجيته، كما أنها أكثر صدقاً وظهوراً وملازمة له، حيث تنبثق منه ولا تنفك عنه، ولا تعتمد ــ في اثباتها ــ على اثبات غيرها. فذاته عين حجته.

وبهذا يختلف في صدق دعواه، وصحة نسبته الى الله، عن بقية الكتب الاخرى في سند إثباتها الى مؤلفيها وكتّابها، وعن بقية الأقوال المأثورة، بافتقارها الى إثبات صحة نقلها بصورة قطعية وتوقف الايمان بنسبتها على تواتر ورودها عن قائلها.

ثانياً ــ إن ترتيب السور، من وضع الصحابة في الجمع الأول زمن ابي بكر، وفي الجمع الثاني زمن عثمان.

فالدليل الأول على هذا: الروايات السابقة، التي تشير الى أن عثمان بن عفان في الجمع الثاني للقرآن، نقل سورتي الأنفال و براءة، و وضعهما بين سورتي الأعراف و يونس بعدما كانتا ــ في الجمع الأول ــ مع السور القصار.

والدليل الثاني عليه: ما ورد في الروايات المتقدمة من ان ترتيب سور ما جمعه الصحابة الآخرون، مغاير لترتيب سور الجمع الأول والجمع الثاني.

كما ورد في كتاب الاتقان لابن فارس أن ترتيب سور المصحف الذي جمعه الامام علي(ع) كان وفق ترتيب النزول. فكان أوله اقرأ، ثم المدثر، ثم نون، ثم المزمل، ثم تبت، ثم التكو ير وهكذا.

وقد ذكر اليعقوبي ترتيباً آخر لسور القرآن الذي جمعه الامام(ع). كما نقل عن ابن أشتة في المصاحف باسناده عن أبي جعفر الكوفي، ترتيب سور المصحف الكريم الذي جمعه أُبي بكيفية مغايرة لترتيب المصحف المتداول مغايرة كبيرة، كما نقل عن ابن أشتة أيضاً باسناده عن جر ير بن عبد الحميد: ترتيب مصحف عبدالله بن مسعود، مبتدئاً بالسور الطوال ثم، المئين، ثم المثاني، ثم المفصل، وهو مغاير للمصحف المتداول كذلك.

وقد ذهب كثير من الباحثين الى ان ترتيب سور القرآن توقيفي لا يخضع للتغيير، وأن النبي(ص) هو الذي أمر بهذا الترتيب المتداول بين أيدينا باشارة من جبر يل و بأمر من الله سبحانه، وقال آخرون بثبوت ذلك بالتواتر، ولكننا لم نلحظ ذلك التواتر. وإلا فأين تلك الروايات المتواترة الدالة عليه؟ وقد تقدمت أهم روايات هذا الموضوع، ولا أثر فيها لاثبات ماذهبوا اليه.

ثالثاً ــ ان مواقع الآيات القرآنية التي نزلت متفرقة ربما كانت وفق اجتهادات بعض الصحابة، كما يدل عليه ظاهر روايات الجمع الأول المتقدمة.

و أما رواية عثمان بن أبي العاص، عن النبي(ص) بأنه قال: **(أتاني جبر يل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة «انّ الله يأمر بالعدل والإحسان»)**، فهي انما تدل على تعيين مواقع بعض الآيات، لا مواقع

كل ما ورد في القرآن من آيات.

و لوسلمنا بمضمون هذه الرواية فانها لا تدل على أن ترتيب الصحابة للآيات والسور مطابق لترتيبه(ص)، كما نتبين ذلك من الروايات المتقدمة.

كما ان حسن الظن بالصحابة لا يعني دلالة تلك الروايات على هذا المضمون من مطابقة ترتيب النبي(ص) لسور القرآن للترتيب الذي قال به الصحابة، وإنما يعني أن الصحابة لا يُقدمون على مخالفة ترتيب النبي(ص) للسور القرآنية فيما علموه منها، لا فيما جهلوه. ولكن الروايات التي أشارت الى ترتيب الآيات والسور في الجمع الأول للقرآن تدل دلالة واضحة على ان الصحابة ما كانوا على علم بمواضع جميع الآيات، ولا على علم بنصوص جميع تلك الآيات.

و يدل على ذلك أيضاً الروايات الكثيرة التي وردت من طريق السنّة والشيعة من ان النبي(ص) والمؤمنين إنما كانوا يعلمون تمام السورة، بنزول البسملة.

أورد ذلك أبوداود، والحاكم، والبيهقي، والبزاز، من طريق سعيدبن جبير ــ كما في الاتقان ــ عن ابن عباس، قال: **كان النبي(ص) لا يعرف فصل السورة، حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم.** وقد زاد البزاز عليه: **فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت، واستقبلت أو ابتدأت سورة أخرى.**

كما أورد الحاكم أيضاً ــ من وجه آخر ــ باسناده على شرط الشيخين مسلم والبخاري عن سعيد، عن ابن عباس، قال: **(كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا نزلت علموا أن السورة قد انقضت.**

و أيضاً ورد عنه ــ من وجه آخر ــ و باسناد صحيح، عن سعيد، عن ابن عباس؛ **أن النبي(ص) إذا جاءه جبريل فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، علم أنها سورة.**

وهذه الروايات تدل على أن الآيات كانت مرتبة عند النبي(ص)، بحسب ترتيب نزولها، فالآيات المكية في السورة المكية، والآيات المدنية في السورة المدنية، إلا سورة واحدة جمعت آيات مدنية نزلت بالمدينة، وآيات مكية نزلت في مكه المكرمة.

ومضمون تلك الروايات يدل على أن ما نشاهده من اختلاف مواضع الآيات القرآنية إنما يعود الى اجتهاد من الصحابة.

ولزيادة الإيضاح نشير الى أن ما لا يحصى من روايات أسباب النزول قد دلت على أن:

أ) ــ هناك آيات مكية أُدرجت في سور مدنية و بالعكس.

ب) ــ هناك آيات نزلت في أواخر عهد النبي(ص) و أُدرجت في سور نزلت في أوائل الهجرة، كسورة البقرة التي نزلت في السنة الأولى من الهجرة، وقد أُدرجت فيها آيات الربا، التي وردت روايات تشير الى أنها آخر الآيات التي أُنزلت على النبي(ص). حتى ورد عن عمر أنه قال: **مات رسول الله(ص) ولم يبين لنا آيات الربا.** كما أُدرجت آية: **(واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله)** [البقرة: ٢٨١] وقد ورد أنها آخر ما نزل من القرآن على النبي(ص).

فوضع مثل هذه الآيات في سور تختلف عنها زمانياً، أومكانياً، أو زمانياً ومكانياً، دليل على أنها لم توضع بحسب ترتيب نزولها، وإنما وضعت وفق اجتهاد بعض الصحابة.

ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الإتقان عن ابن حجر: **وقد ورد عن علي أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي(ص). أخرجه ابن أبي داود، وهو من مسلمات مداليل الشيعة.**

هذا ما دلت عليه الروايات المتقدمة، ولكن مع ذلك، فقد أصر الجمهور من المسلمين، على أن ترتيب الآيات القرآنية التي تضمنها المصحف العثماني، المتواجد لدينا، ترتيباً توقيفياً مطابقاً لما رتبه النبي(ص) من آيات وسور، باشارة من جبريل(ع) وبأمر من الله سبحانه. وأن ظاهر الروايات الدالة على جمع بعض الصحابة للقرآن بترتيب يختلف عن الترتيب الآخر، أوّلوها بأن جمعهم لم يكن لغرض ترتيب السور، وإنما كان ترتيباً لما حفظوه وتعلموه من النبي(ص) من السور وآياتها المرتبة.

ولكن الروايات التي أشارت الى الجمع الأول، تفند هذا التأويل.

وقد استدل بعض الباحثين باجماع المسلمين، على الترتيب التوقيفي للسور والآيات القرآنية، كما نقل السيوطي في الاتقان، عن الزركشي، دعوى الاجماع عليه، أو ما نقله عن أبي جعفر بن الزبير من نفي الخلاف فيه بين المسلمين، ولكنه قول لا يعتمد عليه، مع وجود الخلافات في التحريف، وعدمه، وقد أثبتنا ــ بالدليل ــ بطلان التحريف ــ كما سبق بيانه.

كما ادعى الكثير من الباحثين، تواتر الأخبار الدالة على الترتيب المألوف لدينا عن النبي(ص)، والصواب خلاف ذلك.

فقد نقل في كتاب الاتقان ما رواه البخاري وغيره بعدة طرق عن أنس انه قال: **مات النبي(ص) ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد**. وهذا لا يفيد الكثرة والتواتر.

وفي رواية أبي بن كعب، بدل أبي الدرداء ــ عن المازري، أنه قال: **(وقد تمسك بقول انس هذا، جماعة من الملاحدة، ولا متمسك لهم فيه، فإنا لا نسلم حمله على ظاهره، سلمنا، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه، لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله، أن لا يكون حفظ مجموعه الجم الغفير، وليس من شرط التواتر، أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى).**

فالمازري إذ يؤكد ما جاء في قول أنس، فانه لا يستطيع نفي ظاهره، إذ أن الاعتماد على ظاهر اللفظ، يؤخذ به، ولا ينصرف الذهن عنه، إلا بوجود قرينة تصرفه، من نفس كلام المتكلم، أو ما يكون بقوته وتأثيره، أما مجرد الدعوى خلاف ذلك، أو الاستناد الى قول الآخرين، فلا يعتبر في تأويله وصرفه عن مفهومه الظاهري.

ولو قلنا بما ذهب اليه المازري في حمل قول أنس على خلاف ظاهره، لورد علينا حمل آخر أوجب من سابقه في الأخذ به، وهو: أن هؤلاء الأربعة إنما جمعوا في عهد النبي(ص) معظم القرآن، وأكثر سوره وآياته. فهو لا يدل على أنهم وغيرهم من الصحابة جمعوا جميع القرآن، كما هو موجود اليوم بين دفتي المصحف العثماني، ولا يدل على أنهم حفظوا ترتيب سوره وجميع آياته، وضبطوا مواقعها آية آية في القرآن كله.

لقد صرّح زيد نفسه بأنه لم يحفظ جميع الآيات القرآنية ــ وهو أحد الأربعة المذكورين في حديث أنس، والمتصدي للجمع الأول والجمع الثاني.

كما ورد في كتاب الإتقان، عن ابن أشته، في المصاحف، بسند صحيح، عن محمد بن سيرين، قال: **(مات أبو بكر، ولم يجمع القرآن، وقتل عمر، ولم يجمع القرآن).**

ثم من أين يعلم المازري، أن الواقع مطابق لما يراه، ليحمل حديث أنس على خلاف ظاهره، وقد مرت الشواهد المؤكدة على خلاف ذلك الحمل والتأويل؟

كما إن حفظ جميع المسلمين لجميع الآيات القرآنية، على سبيل التوزيع، لا يدل على تواتر تعيين مواقع الآيات القرآنية ــ كما ذهب اليه المازري ــ وانما يدل على أن مجموع الآيات القرآنية ــ بنصوصها لا بترتيبها ومواقعها ــ منقول بالتواتر.

وقد ورد في الإتقان عن البغوي أنه قال في شرح السنة: **(الصحابة جمعوا بين الدفتين، القرآن الذي أنزله الله على رسوله، من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً، خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله (ص)، من غير أن قدموا شيئاً أو أخروه، أو وضعوا له ترتيباً، لم يأخذوه من رسول الله (ص).**

وكان رسول الله (ص) يلقن أصحابه، ويعلمهم ما نزل اليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا، في سورة كذا.

فثبت، أن سعي الصحابة، كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه، فان القرآن، مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، أنزله الله جملة الى السماء الدنيا، ثم كان ينزله مفرقاً عند الحاجة، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة).

ونقل عن ابن الحصار، أنه قال: **(ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها انما كان بالوحي. كان رسول الله (ص) يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من رسول الله (ص) وانما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف).**

ونقل أيضاً ما يقرب من هذا المعنى عن جماعة غيرهم، كالبيهقي، والطيبي، وابن حجر.

ولنستعرض ما ورد فيه لنتبين مدى علاقته بما ذهبنا اليه:

١ــ ورد في قولهم: **(أن الصحابة إنما كتبوا المصحف على الترتيب الذي أخذوه عن النبي (ص)، من غير أن يخالفوه في شيء).**

فللإجابة عليه نقول:

أ) ــ لم يرد مضمون ذلك في الروايات المتقدمة، لاسناد ما ورد في هذه الرواية.

ب) ــ نفهم من نصها، أنها تفيد إثبات النص القرآني، لا إثبات ترتيب الآيات والنصوص القرآنية، التي نزلت متفرقة.

ج) ــ ورد في رواية ابن عباس المتقدمة ما يشير الى الترتيب، ولكن الذي ورد فيها، أنه كان(ص) يأمر بعض كتّاب الوحي بذلك، وهو غير اعلامه جميع الصحابة ذلك.

د) ــ وهي ــ رواية ابن عباس ــ معارضة بروايات الجمع الأول للقرآن زمن أبي بكر، ومعارضة أيضا، بأخبار نزول بسم الله، وبغيرها من الروايات.

٢ــ ورد في قولهم: **(إن النبي (ص) لقّن الصحابة هذا الترتيب الموجود في مصاحفنا، بتوقيف جبريل، ووحي سماوي).**

ونجيب عليه:

ـ ان هذا القول يبدو كأنه يشير الى حديث عثمان بن أبي العاص المذكور سابقا في آية: **(إنّ اللّه يأمرُ بالعدلِ والاحسان)**، وهو حديث واحد في بيان موضع آية واحدة، ولا يؤخذ به في إثبات تعيين مواقع جميع الآيات المفرقة.

٣ـ وورد أيضاً:

(أن القرآن مكتوب على هذا الترتيب، في اللوح المحفوظ، أنزله الله الى السماء الدنيا، ثم أنزله الله متفرقاً عند الحاجة).

ونقول:

أ) ـ لقد أشارت هذه الفقرة، الى ما روي من أحاديث متواترة، من طرق الشيعة والسنة، من نزول القرآن جملة، من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا، ثم نزوله منها الى النبي (ص) نجوماً متفرقة عند الحاجة والمناسبة.

ب) ـ ان هذه الأحاديث المتضمنة لهذا المفهوم لا تدل على أن القرآن المكتوب في اللوح المحفوظ مرتبة آياته في السماء الدنيا، كترتيب آيات وسور القرآن الموجود عندنا.

٤) ـ وورد أيضا في قولهم:

(إنه قد حصل اليقين بالنقل المتواتر، عن رسول الله (ص) بهذا الترتيب الموجود في المصاحف).

فنجيب عليه بـ:

أ) ـ أنه دعوى خالية من الدليل.

ب) ـ إن هذا التواتر المقصود لم نجده بالنسبة لجميع آيات القرآن، آية آية.

ج) ـ لقد ورد في الكثير من الروايات أن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين في مصحفه لاعتباره أنها ليستا من القرآن، وإنما أنزلتا على النبي (ص) لتعويذ الحسنين (ع) بهما، فكان يحذفهما من المصحف، ولم ينقل عنه أنه رجع عن ذلك.

فلو كان هناك تواتر على هذا الترتيب، فكيف خفي عن عبدالله بن مسعود طوال حياته، بعد الجمع الأول، ليصحح موقفه من المعوذتين، فيضمها الى المصحف كما هو عندنا؟

(الفصل السابع)
في النسخ والإنساء

لقد وردت من طرق أهل السنة روايات تتعلق بالإنساء، ونسخ آيات القرآن في تفسير قوله تعالى: **(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها....)** [البقرة ـ ١٠٦] وقوله: **(واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل، قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون)**. [النحل ـ ١٠١].

فقد استدلوا بتلك الروايات والأحاديث على تحريف القرآن الكريم بسقوط بعض آياته أو تغيير مواقعها.

(١) ـ فمن تلك الروايات: ما ورد في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم، والحاكم في الكني، وابن عدي، و ابن عساكر، عن ابن عباس، قال: **كان مما ينزل على النبي (ص) الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله: ما ننسخ من آية أو ننسأها، نأت بخير منها، أو مثلها.**

(٢) ــ وفيه عن أبي داود في ناسخه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي أمامة: **أن رهطاً من الأنصار، من أصحاب النبي (ص)، أخبروه: أن رجلاً قام من جوف الليل، يريد أن يفتتح سورة كان قد رعاها، فلم يقدر منها على شيء، إلا بسم الله الرحمن الرحيم، ووقع ذلك لناس من أصحابه، فأصبحوا، فسألوا رسول الله (ص) عن السورة، فسكت ساعة، لم يرجع اليهم شيئاً، ثم قال: نسخت البارحة فنسخت من صدورهم، ومن كل شيء كانت فيه.**

وقد روي مضمون ذلك في أحاديث أُخرى بعدة طرق و بألفاظ متقاربة.

(٣) ــ وفيه: عن عبدالرزاق، و سعيدبن منصور، و أبي داود في ناسخه، و ابنه في المصاحف، والنسائي، و ابن جرير، و ابن المنذر، و أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن سعدبن أبي وقاص، أنه قرأ: **(ما ننسخ من آية أو ننسأها)، فقيل له: ان سعيدبن المسيب يقرأ: (ننسها) فقال سعد: (ان القرآن لم ينزل على المسيب ولا آل المسيب، قال الله تعالى: (سنقرئك فلا تنسى)، (واذكر ربك إذا نسيت).**

أقول: يريد سعد بذكره هاتين الآيتين بيان عصمة الله للنبي (ص) عن النسيان فهو لا ينسى، وعليه فلا يصح قراءتها عند سعد بما نقلت عن المسيب (ننسها)، والصحيح عنده (ننسأها) من النسيء بمعنى الترك والتأخير، فيكون المراد بـ (ما ننسخ من آية) بإبطال العمل بها، وإبقاء قراءتها، كآية صدقة النجوى، و بـ (ننسأها) بابطال العمل والتلاوة معاً بها أي بتركها ورفعها من عندهم بالمرة. كما روي هذا التفسير عن ابن عباس، ومجاهد، و قتادة، وغيرهم.

(٤) ــ وفيه: أخرج الأنباري، عن أبي ظبيان، قال: **قال لنا ابن عباس: أي القراءتين تعدّون أول؟ قلنا: قراءة عبدالله، وقراءتنا هي الأخيرة. فقال: رسول الله (ص) كان يعرض عليه جبريل القرآن كل سنة مرة في شهر رمضان، وإنه عرضه عليه في آخر سنة مرتين، فشهد منه عبدالله ما نسخ، ما بدل.**

و روي هذا المعنى بطرق أخرى، عن ابن عباس، و عبدالله بن مسعود نفسه، و غيرهما من الصحابة والتابعين، إضافة الى وجود روايات أُخر في الإنساء أعرضنا عنها لبطلانها بمخالفة الكتاب الكريم.

ومحصل ما تبدي تلك الأحاديث: أن النسخ يتعلق:

أ) ــ **بحكم الآية:** فيزول حكمها وتأثيرها بآية أُخرى وتبقى صورتها في القرآن. كقوله تعالى: **(فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره)**. إذ نزلت في فترة ضعفهم، ثم أُبدلت في وقت آخر بآية القتال. وكذا في قوله: **(فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً)** حيث نسخت بحكم الجلد.

ب) ــ **بنص الآية وحكمها:** وذلك بأن يرتفع نص الآية و يزول حكمها أيضاً: كآية نكاح الزانية والزاني، وهو ما أشار اليه الحديث الثاني والأول من هذا الفصل.

ج) ــ **بنص الآية نفسها:** وذلك بأن يرفع من القرآن نصها و يبقى حكمها، كآية الرجم.

ولكن **النسخ:** هو إزالة أثر وحكم الآية وإبقاء نصها، وهو يشمل الفقرة ــ أ ــ دون الفقرتين الأخريين.

أما **الإنساء:** وهو إذهاب الآية عن العلم، وهو ما يتعلق بالفقرتين ب، جـ.

وهو افتراض محض مؤداه قدرة الله على فعله بإنسائكم بعض الآيات وإزالة أثره مما في أيديكم ولا دليل على وقوعه فعلاً سوى تلك الروايات التي تثبت النقص في القرآن، والتي أثبتنا سابقاً مخالفتها لصريح القرآن. فالأحرى طرحها جانباً